(١٧)

الإسلام
دين ودولة
دين إنسان الفطرة ودولة إنسان الوجود

حديث الجمعة
١١ ذو القعدة ١٣٨٢ هـ - ٥ أبريل ١٩٦٣ م

أعوذ برب الناس، الرحمن الرحيم، وأستعينه على قيام الصراط المستقيم، وأشهد أن لا إله إلا الله، أعطى كل شيء خلقه وكل نفس هداها، وأجابها إلى طريق ابتلائها أو طريق تقواها. وأشهد أن محمدا رسول الله، رحمة الله وهداه، وقدوته لمن ارتضاه، ورضوانه الأكبر لمن اصطفاه، رضوان العبد والرب والإله.

عباد الله.. اتقوا الله، واعلموا أن الإسلام، كما عرفه معروف رسوله إليكم ومؤسسه لديكم، ومظهره بينكم حقا من ربكم، إنما هو دين إنسان الفطرة. تواجد قرين تواجد الناس في الوجود، عقائد ومناسك في حدود طاقتهم لتصوير الأمور للعقل، وفي حدود إدراكهم لافتقارهم للأمر، وتطور مع نشأتهم، كلما تقدموا في النمو العقلي، وكلما مكنوا من التدبير النفسي، وكلما نمت فيهم الطاقة، وكلما قام فيهم شيء من الحكمة تكشفت لهم عن أنفسهم من الله غلالة، وترددت بينهم عن الله مقالة، فاستقاموا، فذهبت من أحوالهم بجهدهم ظلمة وضلالة، وهكذا بين ارتداد لظلام وبين تخلص منه، وبين استمداد لنور الحياة نورا على نور، وبين تقلص له بين ليلهم ونهارهم في تخلفهم وتقدمهم قرونا بعد قرون، ما زالوا ولن يزالوا تقطعهم لا يقطعونها، وتقومهم لا يقومونها. فالإسلام يوم عرفه أهله دينا ودولة عرفوه دينا حرفوه، وعرفوه دولة ابتدعوها. فالإسلام دين، هو الخلق القويم وهو الطريق المستقيم، وهو أمر الله المقيم في نفس وما سواها على ما ألهمها من فجورها وتقواها. وهو دولة، هو الدولة الأزلية القائمة كما هو الرسالة الأبدية الدائمة، هو دولة الحق للوجود، هو قانون الحياة في الوجود، هو قانون الرحمة للمؤمنين، وقانون العدل للظالمين، هو دولة الله، {وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون}[١]. هو حزب السلطان والحكم في الكون لله ورسوله والمؤمنين، شعبهم العاصون

والغافلون، والمبتدئون والساهون، والضالون والمضلون، والجريئون والمتقون، والصالحون والمصلحون والمفسدون. إنها دولة لا يفلت من حكم القانون سكانها، ولا يغرب عن مكان سلطانها، مشرق في أزل الآزال، وقائم في دائم القيام، ومسفر في أبد الوجود وقوانينه عنوانها، يقومها الله ورسوله وملؤه من المؤمنين، ويظهرها بأمر الله الرسول، والشهداء والصديقون، ظاهرا لباطن علما عليه ورسوله وملئه. الله قائمها، والرسول في الحق شهيدها، والرسول في الناس مشهودها، والله المُشاهَد والمشاهِد فيها، والناس به في الحياة والقيام في النجاة والسلام، وبالغفلة عنه في المجانبة والشرك والخصام. الله، ورسول الله، وعباد الله، يتناجون في الله، ويتناجون في الحقيقة. الحقيقة جامعهم وجماعهم. إن العَلَمَ على الله للإنسان هو الإنسان، والمعلوم عند الإنسان من الله إنما هو الإنسان، والعالم عن الله الطالب للمعرفة عنه من الناس هو الإنسان، فالإنسان لله عنوان في رسالته، بألوهيته وربوبيته، وحق عبوديته. الإنسان إله يوم يخدم الإنسان إنسانًا هو مجهول عليه وغيبٌ عنه، ورب يوم يمثل رحمة الله ونظرته لمن دونه من الإنسان معروفا عنده. وهو عبد يوم ينظر لما يعلوه من الإنسان ربا وإلها له...

والإنسان يوم يحمل من الإنسان ظاهر ربه به إلى الإنسان معلوم ربه عنده فهو رسول الله، وهذه أشرف وأعرف وأقوم زاوية من زوايا الإنسان، وصفة من صفاته.

إذا عرف الإنسان أنه لا بدء للإنسان في وجود الله، كما علم رسول الله، لو ظللت تسألني إلى ما شاء الله لقلت آدم، (قبل آدم مائة ألف آدم)[٢]، فالإنسان إذا نظر إلى الماضي، لا بداية لخلقه، ولا بداية لوجوده، ولا بداية لتواجده، ولا بداية لأطواره، ولا بداية لتطوره، ومن كان لا بداية له، فلا نهاية له. فالإنسان لا نهاية لتجدداته، ولا نهاية لبداياته، ولا نهاية لتواجداته، إن يشأ يذهبكم ويأتي بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز، هو الذي بدأكم، هو الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا ونساءً كثيرون. من قتل نفسا مؤمنة بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعا. وإذ أخذنا من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدتهم على أنفسهم، يُشهد الآباء الأبناء بالحق، ويُشهد الأبناء الآباء بالحق، فأشهد الأبناء بما فيهم من الخلق للآباء بما فيهم من الحق، كما أشهد الآباء بما فيهم من الخلق للأبناء بما فيهم من الحق، فتداولت الأيام بينهم، فأصبح الأبناء آباءً وأربابا للآباء يوما بما قام بهم من الحق فاقرة إليه قلوب الآباء، وأصبح الآباء أربابا للأبناء يوما بما قام بهم من الحق فاقرة إليه قلوب الأبناء. فالأمر الذي يعني كل إنسان بشري أن يبدأ بخلقيته معاني حقيته ما تواجد بوصف البشر على أرض البدء من هذا الكوكب. وعلى هذا قامت جميع الأديان، وعليه بنيت كل حكمة، وفيه استقامت كل طريق لهدي. فالآباء في أزلية الخلق بينهم من توفى إلى أحسن تقويم

وأمسكته بتمامه يد الله عن البعث، ولم تمسكه عن تجديده لنفسه بجديد بدء بآدم على صورة بدئه، والأبناء في قادم من قائم يبعث بهم من لم يتوفَ من الآباء حتى تمام توفي إلى أحسن تقويم تمسكه يد الله عن مواصلة بعثه وإن لم تمسكه عن تجديد بدئه.

وهذا ما كشف عنه رسول الله أبا وولدا يوم قال: من كان مني ورآني في معاني الأب والأصل له، كنت منه يوما، فرآني في معاني الابن له. من رأى فيَّ معاني الحق عليه يقوم سأشهد فيه يوما معاني الحق فيه، عليّ يقوم ومنه يقام. أنا سيد ولد آدم ولا فخر، فهذا هو الحق ولا يفرقني عنه سابق من أب، وأنا مع أبي على ما أنا معكم يوم تكونون معي على ما أنا معه. آدم أبو روحانيتي وابن جسمانيتي، وما أعطيته فلأمتي، إذا كنتم اليوم أبناء لآباء فيهم تشهدون حقا فتتحققون فالآباء من خلالكم على الأرض يوما يتواجدون، وأنتم في السماء مكانهم تحتلون يوم تتصاعدون، وإلى الأرض لا تتثاقلون، وقبلة الدعاء لهم تكونون، وإليكم أيديهم بالدعاء يرفعون ويتضرعون، على ما أنتم اليوم تفعلون وإلى الملأ الأعلى لكم تتجهون، فإن ربًّا لكم غير أصولكم أو فروعكم لن يكون، فالأيام يداولها بينكم القانون فيوما تعلون ويوما تخفضون. لا الانخفاض مضيع مكانتكم من الله ولا الارتفاع مخرجكم من وصف الإنسان في الله والعبد له. فالإنسان في أحسن تقويم، والإنسان في أسفل سافلين هو الإنسان. وهذا ما عناه رسول الله يوم قال: لو ألقينا بحبل على الأرض السفلى لوقع على الله، ولو قذف أحدكم بحجر فوق السموات لتلقفته يد الله. فمن يكون فيما تكونون؟ أغيره كائن أو يكون؟ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله، والله خلقكم وما تعملون، فما عملكم إلا عمل الله، وما خلقتم ما خلقتم وإن تشابه الخلق عليكم إلا بقدرة خالقكم وهو الله. فإذا تدبرتم أمركم فيه لعرفتم أن الإسلام دينا لكم يوم تدينوه دين رحمة وسلام.. دين سكينة وقيام.. دين فعل واستسلام.. دين حق في حاضر قيام وفي كل قيام.. دين القيمة.. دين العزة يوم تكون العزة لله.. دين السلام يوم يسالم الناس بعضهم بعضا سلاما مع الله.. دين السكينة يوم تسكن العقول والنفوس بآلاء الله.. دين الحياة فلا ترى شيئا فوق الله، ولا ترى وجودا دون الله، ولا ترى موجودا غير الله.. دين الفناء في الله والبقاء بالله، والتحرر من سلطان مادة الدنيا بالافتقار إلى الله. أهله يملكون الدنيا، لا يأبهون لها، يبذلونها ظاهرا وباطنا يستجلبون بها نفوسا إلى الله، ويستقيمون الدين، لا يأبهون لأنفسهم وما تعطي وما تملك، بل يرون الأمر كله لله، والأمر كله من الله، يشهدون لا إله إلا الله، ويقومون لا إله إلا الله، ويعرجون لا إله إلا الله، ويشهدون الله أكبر، ويقومون الله أكبر. العبد والرب حقان في الله، ووجهان لله، هما للإنسان في الله...

يعلمون أنهم لله ورسوله كلمات هم منهم للناس آيات، وأن الناس لديهم منهم لهم كلمات، والناس لديهم منهم لهم آيات، فيعلمون ويعلِّمون ويتعلمون في دوام، فيعلمون أنهم في بيت ربهم ورسوله

والمؤمنين يقيمون، دارا عرضها السموات والأرض، فيها يسبحون ومنها يوما يسرحون، هم في نهارها من اليوم يتجولون، وفي ليلها يسكنون، وبالله ورسوله، لعقولهم وقلوبهم، في حياتهم ومضاعفة الحياة لهم يعيشون، وبهم يعرجون، ومنها بهم يوما يتطلعون، وبهم في دوام رسلا يدانون. قلوبهم بيوت قدس عقولهم، وعقولهم نور قدس وجودهم، الله موجودهم، وبيته قلوبهم، ورسوله نور عقولهم، ومعراج رقيهم، وفيه صحو ضمائرهم، لا يغيبون الله عن حياة من حيواتهم، ولا يغيبون الله عن شهود، ولا يغيبون الله عن قيام. هو قيامهم وقيام من حولهم. هو كل شيء لهم. وهم ضئيل الشيء فيه وإن اتسعت قلوبهم للسموات والأرض، وهو المالك لكل شيء، فيه لا يخرج عن ملكيته، ولا يعزب عن علمه، ولا يبتعد عن معانيه. عظمته ظاهرة في كل مثقال حبة من خردل في السموات أو في الأرض...

يسعد به المؤمنون به وبرسوله بقيامه على أنفسهم. يستغفرونه حاضرا إن أساؤوا فيغفر لهم وينجيهم من الغم والقلق والحيرة، ويشكرونه موفِّقا إن أحسنوا فيجزيهم جنة الدنيا يقومونها، وجنة الآخرة يشهدونها، يناجونه بين الجوانح فيلبيهم بحكمته، ويستعينونه في استقامة الجوارح فيقومَهم برحمته، ويصدقونه أقرب إليهم من حبل الوريد فيمنحهم دوام الحياة به، ويسألونه كشف الغطاء ليشهدوا السعادة وتحقيق الرجاء فيكشف للناس عنهم، ويشرق بهم شموس الدلالة عليه...

مسحاءه يطلبون، ومسحاءه يؤمنون، وكلماته يسمعون ويقرأون، وأوادمه الناس أجمعين يقومون يوم يستقيمون، ويوم أغلفتهم عن حق معانيهم يُسقطون، أوراق خريف يخلعون، لشجرة حياة بها يقومون، وهذا هو فطري الدين يبلغون، وباستقامتهم عليه في دولة الحق يجندون، وفي دار الحق هم المواطنون، وعلى الغافلين في عوالم الوجود برحمة هم الأعلون، وبحنان هم السائدون، وبعلم وباستقامة هم السائقون. دواب الأرض وبهائم الأنعام رسلا يدانون، ومن أنفسهم يبعثون، وفي صورهم يظهرون، فالحراف الضالة بعيدا عن طريق الذئاب العاتية والآساد الطاغية يقودون، وطريق النجاة بهم يسلكون. أمة يدعون، وفردا يتواجدون. إن إبراهيم كان أمة على ما تعلمون، والله يدعو كل أناس بإمامهم على ما تقومون، طُغاة كانوا أو هداة يكونون. فرعون يقدم قومه يوم القيامة، كما أنكم مع كل طاغ تبلسون. المرء على دين خليله فلينظر أيكم من يخالل، والمؤمن مرآة المؤمن، فابحث لك عن مرآة لك من حاضرك، من مجتمعك، من بشريتك، من عصرك، اسأل به خبيرا، اتبع عظته، قم معه لله مثنى، تعلم منه ومعه الإيثار على نفسك، تعلم الغيرية مع أخيك، ومن لنفسه يرتضيك، ولنفسك ارتضيت. صاحبه، لا لتكون أنت أنت، وهو هو، ولكن صاحبه لتكون أنت هو، وهو أنت، يوم تكونا واحدا لا تعدد له، فتعرفون أن الإنسان المحدث في جمعه على صورة الإنسان القديم في اجتماعه،

فتعرفون عن الله مع الإنسان بالإنسان في أزلي الإنسان، وتعرفون عن الله مع الإنسان بالإنسان في أبدي الإنسان، فتعلمون ما قدمت أنفسكم بآبائكم، وما أخرت أنفسكم لأبنائكم، فتقومون القديم إلى ما تعلمون من الحق، يصلح بكم على ما صلحتم بما فيه من صلاحية لكم، وتُعدُون الجديد على ما تعلمون بالحق لينشأ صالحا بصلاحكم ما صلح لاقتدائكم بصلاحه لكم، وبذلك إلى معراج الكمال في الله تتجهون، وأحسن تقويم تنشدون، وسلم المعراج تصعدون، أو برسالة عليه تهبطون. فإن الله ما فوق معراجكم بعظمته وسعته، وهو ما تحت مهبطكم برحمته وقربه، هو يد الله من تحتكم لكم مقلة بعوالمه دونكم، ويد الله من فوقكم عليكم مظلة بعوالمه فوقكم، وأمر الله فيكم وبكم يقوم، وعليكم منكم قائم، بعوالمه بكم تتواجد والحق بها يقوم.

إن الأحداث في عالمكم تسير في خطها المرسوم، اعملوا كل ميسر لما خلق له، وإنما الأعمال في داركم بمولدكم الفطري بدءا لوجود لا يعرف أهلها ما لهم من قبل من سابقة تواجد، سواء على هذه الأرض، أو على غيرها من سيارات هذا الوجود الشمسي. كل مولود في عالمكم هذا يولد على الفطرة، لا يسأل عن سوءات قديمه، ولا يتأثر بزلات قادمه، فالله لجديده يكفل، والله لقديمه يغفر، ما استقام هو في قائمه بحاضره مع ربه، وبدأ في إقامة علاقة بينه وبين ربه قائما على كل نفس فكسب الحياة، وفاض على أصله وفرعه وعينه بالحياة.

إن فرصة الحياة.. إن لمحة الحياة في أبديها وأزليها، إنما هي لمحة الحياة في قيامكم في هذه الحياة البدئية، الفطرية، الموقوتة، الضئيلة، المحدودة المعالم، بين مولد وموت، وبين موت ومولد. هذه اللمحة الزمنية القصيرة الأمد، هذه الساعة الوقتية في سرمدي الحياة، يوم تحيا بها النفس من قلب حي هي فرصة متاحة لكل من أتيحت له، وهيئت له أسبابها بأن يغير بها قديمه، من حيث لا بيت ولا أسرة له، وأن يكتب بها جديده متخلصا من قديم تجربته، متعلقا بقائم علمه لبيت لله وأسرة حية بالله، {نون والقلم وما يسطرون}[٣]، (من صلح أصلحنا له من صلح من آبائه وأزواجه وذرياته)[٤]، {ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل}[٥].

إن عبارات الكتاب الآن عند أهله من كل أمة أصبحت رنينا لا معنى له، ونغما لا وعي له، وحروفا لا روح لها، وأوراقا وألواحا لا حياة فيها من يوم أن تركوا الكتاب الحي بإغفالهم عترة الرسول بينهم، بهم يبعث ويتكاثر. إن الله يريد أن يذهب بهذه الأمم الزائفة للكتاب والرسول أو للكتب والرسل على ما يريدون أن يتصفوا لأنفسهم، ويأتي بخلق جديد.. يأتي بنور جديد.. يأتي برسول جديد.. يأتي بأمة من الرسل في رسول.. يأتي بدين جديد هو حق كل قديم.. يأتي بكتاب جديد هو جماع كل الكتب.. يأتي بأمة جديدة.. يأتي ببشرية جديدة.. يأتي بإنسانية جديدة، يجدد بها صالح

القديم إلى كمال، ويحكم بها على الفاسد المقيم إلى زوال، يحكم بها على فاسد الناس المقيمين في هذه الحياة الأرضية، رواسب الماضي وأتربة العصور. إن الناس في جهل من أمرهم لأنهم في غفلة عن أمرهم، فمن استيقظ سلك بنفسه بعيدا عن القوارع، فإن قوارع الله قاربت بمزيد، وبأس الله وهو قائم قارب بشديد، ووطأة الله ونحن تحتها دائما، مصحوبة برحمته، توشك أن تتكشف بعدله وسطوته. ها هي السماء انشقت وأذنت لربها وحقت، وها هي الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت وأذنت لربها وحقت. ها هي الرسالة الروحية تفرض وجودها، وتقيم في الناس شهودها، وتقدم من الآيات للناس في الآفاق وفي أنفسهم ما يبين لهم معاني الحق فيهم وفي الوجود. وها هي إرهاصاتها لإجابة ندائها طوعا وكرها في حس المتأمل، بعيدة عن نظر الغافل، والله بها بالغ أمره.

إن الناس في غفلة عن هذا إلا من كشف عنه غطاؤه، فلا تكونوا من الناس على ما هم الناس في غفلتهم لا يتحركون عن ظلام أنفسهم. وإن لله في أيام دهركم لنفحات فتعرضوا لها، وها أنتم هنا متعرضون لها، وهي متكشفة لكم، فصدقوا الصادقين وقد صدقوكم، وجانبوا الغافلين مرادهم أن يستغفلوكم، ولا تكونوا من الهالكين ومرادهم أن يهلكوكم. ومن يؤمن بالله ويجعل منه حسبه، ويكفر بالطاغوت ويجعل منه خصمه، فإنه يستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، يصل الله ورسوله، ويصله الله ورسوله. نسأل الله أن يرحمنا، وأن يرحم بنا، وأن يغفر لنا، وأن يغفر بنا، وأن يهدِنا، وأن يهدي بنا، وأن تمتد يده إلينا برحمته، ونجدته، وأن يجعل منا أيدي له تمتد برحمته ونجدته. إنه على كل شيء قدير، وبذلك وبأكثر منه جدير.

اللهم يا من أرسلت رسولك في دوام رحمة لنا، وجددته في تجددنا عونا لنا، وأخفيته وأشهرته بيننا اختبارا لنا، ورحمة منك بنا، وعدلا منك فينا، اللهم عليه فاجمعنا، وبه فارحمنا. اللهم اجعلنا منه لك عبادا لك، واجعله منا لك عبادا لك، لا معبود سواك، ولا هادي إلا إياك، نشهدك فيما نشهد موجودا لا يغيب، وكبيرا لا يحاط به، وعاليا لا يعلى عليه، ومدانيا في مداناته لا يسبق. يا من أعلمتنا عنك بإعلامنا عنا يوم قلت لنا أنك القائم على كل نفس بما كسبت، وأقرب إليها من حبل الوريد ومن ورائها محيط، اللهم اجعلنا الناس بك وجوها ناضرة لربها منظورة ناظرة. اللهم أتبعنا لدين القيمة علينا منك قائما علينا بهم برحمتك وبكرمك، وبآلائك، وبهديك، وبعلمك وبكتابك وحكمتك. اللهم إنا إليك نجأر، ومن ذنوبنا نستغفر، وإليك نفتقر. أنت تعلم عنا ما لا نعلم، وما نعلم. وأنت الأعلم بنا مما نعلم، ومما لا نعلم. أنت تعرف ضعفنا ونحن نشهده ونقره. اللهم فعافنا من إقامة عدلك على ما وعدت من غلبة رحمتك، واشملنا برحمتك على ما بشرت بهديك، وقنا شر غضبتك على ما حذرت ببلاغك، وكن لنا في الصغير والكبير من شأننا، وخذ بنواصينا إلى الخير، واجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير

أيامنا يوم لقائك، وانصرنا على أنفسنا حكاما ومحكومين، وولِ اللهم أمورنا خيارنا، ولا تولِ أمورنا شرارنا، برحمتك يا أرحم الراحمين.

مصادر التوثيق والتحقيق

١ سورة التوبة - ١٠٥

٢ إشارة إلى حديث شريف ذات صلة ذكره ابن العربي الحاتمي عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: "إن الله خلق مائة ألف آدم". وجاء في بحار الأنوار، من المكتبة الشيعية، عن السيد محمد الباقر: "بلى والله لقد خلق الله تبارك وتعالى ألف ألف عالم وألف ألف آدم."

٣ سورة القلم - ١

٤ استلهاما من {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ.} سورة الرعد – ٢٣. و{رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.} سورة غافر - ٨

٥ سورة فاطر - ٣٧